

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الدرس : 7 - سورة غافر - تفسير الآية 60

26-12-1995

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتنبهون أحسنه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام، الآية الكريمة، وهي قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(60)﴾

[سورة غافر]

أدق ما في الآية أن الله سبحانه وتعالى لو قال: يستكبرون عن دعائي، كان سياق الكلام يقتضيه ! فلماذا بدل كلمة دعائي بعبادتي ؟ فهم أن الدعاء هو العبادة، فأصل العبادة أنك مُفْتَقِرٌ إلى الله، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)﴾

﴿الْمُصَلِّينَ(22)﴾

[سورة المعارج]

فالإنسان مُفْتَقِرٌ، والإنسان ضَعِيفٌ، فذا دعا الله عز وجل صار غَنِيًّا، وَقَوِيًّا، وطَائِعًا، فأصلُ الدِّين أن تعترف بِفَقْرِكَ، وأن تدعُو رَبَّكَ والعلماء قالوا: ما أمر الله عباده بالدُّعاء إلا لِيَسْتَجِيبَ لهم، إذ لا يُعْقَل أن نطرح مُسَابِقَةَ أو مُنَاقِصَةَ أو مُزَايِدَةَ، ولا نُنْفِذَ، فالإنسان يستحي أن يفعل هذا فَكَيْفَ بِخَالِقِ الكون، فرُبُّنا عز وجل يقول لك: أدعوني، فالحقيقة المرّة أن المسلمين كثيرين جدًّا موضوع الدعاء ليس داخلًا في حساباتهم، لأنّ التّفكير أصبَحَ شِرْكَِي ووثني، فالذي في قلبه الشُّرك لا يُصَدِّق أن كلماتٍ معدودة تُغَيِّر واقع، وتُبدِّل تركيب جِسْم، وكلمات تُحدِث شفاء، ورزق، وكلمات تُحدِث تيسير، فالقضية أن المسلمين اليوم لا يعبتون بالدُّعاء، وهناك أناسٌ يُغالون بالدُّعاء، لأنّ الله عز وجل قال:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55)﴾

[سورة الأعراف]

مَنْ هُوَ الْمُعْتَدِي؟ هُوَ الَّذِي يَعْتَدِي عَلَى أَخِيهِ الْإِنْسَانَ، وَيَقُولُ يَا رَبِّ؛ انصُرْنِي، وَوَقَفْتِي فَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَهُؤُلَاءِ؛ إِنَّنِي لَا أُجِيبُكُمْ لِأَنَّكُمْ مُعْتَدُونَ فَذَلِكَ لَا أَسْتَجِيبُ، فَهَذَا أَحَدُ الْعُلَمَاءِ الْكِبَارِ وَاسْمُهُ إِبْرَاهِيمُ الْأُدْهَمُ، قِيلَ لَهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ: مَا لَنَا نَدْعُو، وَلَا يَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَنَا؟ فَقَالَ: لِأَنَّكُمْ تَسْعُونَ لِحِجَّةٍ وَعَمَلِكُمْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَتَقُولُونَ: نَخَافُ النَّارَ، وَعَمَلِكُمْ يُخَالِفُ ذَلِكَ، وَكُلُّكُمْ دَعَاكُمْ لَا تُصَدِّقُهَا أَعْمَالِكُمْ، فَأَوَّلُ فِتْنَةٍ مِنَ الْغُلَاتِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا فَضْلَ الدُّعَاءِ؛ إِمَّا إِنْكَارًا لَفِطْرًا أَوْ إِنْكَارًا ضَمْنِيًّا، وَالْفِتْنَةُ الثَّانِيَّةُ عَظَمَتُ الدُّعَاءِ لِدَرَجَةِ أَنَّهَا لَمْ تَتَحَدَّثْ عَنْ شُرُوطِهِ! قَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186)﴾

[سورة البقرة]

فَأَنْتَ إِذَا آمَنْتَ بِاللَّهِ، وَأَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَاسْتَجَبْتَ لِأَمْرِهِ، وَنَهَيْتَهُ فَالآنَ أَصْبَحْتَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ وَدَعْوَتُهُ مُخْلِصًا، فَشُرُوطُ الدُّعَاءِ ثَلَاثَةٌ أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ، وَأَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُ، وَأَنْ تُخْلِصَ لَهُ، فَإِذَا آمَنْتَ، وَاسْتَجَبْتَ وَأَخْلِصْتَ أَصْبَحْتَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى تَرْغِيْبًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَيْ يُقْبَلُوا عَلَيْهِ اسْتِثْنَى مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ الْمُضْطَرِّ، قَالَ تَعَالَى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا، فَأَيُّ مُضْطَرٍّ بِأَيِّ وَضْعٍ، وَبِأَيِّ عَقِيدَةٍ، وَبِأَيِّ سُلُوكٍ، فَإِذَا كُنْتَ مُضْطَرًّا وَقُلْتَ يَا رَبِّ لَيْسَ لِي سِوَاكَ، قَالَ اللَّهُ لَكَ: لِنَبِيِّكَ يَا عَبْدِي، فَالْمُضْطَرُّ مُسْتِثْنَى، وَغَيْرُ الْمُضْطَرِّ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَسْتَجِيبَ وَيُخْلِصَ، وَالنَّبِيُّ الْكَرِيمُ يَقُولُ اسْتِنْبَاطًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(60)﴾

[سورة غافر]

قال عليه الصلاة والسلام:

(( عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ ( وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ) قَالَ الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ وَقَرَأَ ( وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ) إِلَى قَوْلِهِ ( دَاخِرِينَ ) \* ))

[رواه الترمذي]

بَلْ إِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَرَى أَنَّ الصَّلَاةَ الدَّائِمَةَ هِيَ الدُّعَاءُ، فَإِذَا الْإِنْسَانُ مَسَكَ كَاتِبَ الْأَذْكَارِ لِلنُّوِي يَجِدُ فِيهِ دُعَاءَ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ، وَدُعَاءَ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، وَدُعَاءَ إِذَا أَوَى إِلَى فَرَاشِهِ، وَدُعَاءَ إِذَا جَلَسَ إِلَى الطَّعَامِ، وَدُعَاءَ إِذَا انْتَهَى مِنَ الطَّعَامِ، وَدُعَاءَ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ وَخَرَجَ مِنْهَا، وَدُعَاءَ إِتْيَانِ الْأَهْلِ، فَمَعْنَى هَذَا أَنَّكَ مَعَ اللَّهِ دَائِمًا، كَيْفَ تُفَسِّرُ أَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ؟ لَعَلَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يُؤَدُّونَ الصَّلَوَاتِ عَلَى أَوْقَاتِهَا كَمَا قَالَ لِي أَحَدُهُمْ، فَقُلْتُ لَهُ هَذَا الْمَعْنَى مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:

## ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) ﴾

[سورة المؤمنون]

فالمحافظة على الصلاة أن تُؤدِّيها في وقتها، وأن تُتِمَّ رُكُوعها وسُجُودها وأن تُخَشَع، أما الدوام على الصلاة هو الدُّعاء المُستَمِرّ.

هناك أمر ثانٍ بالدُّعاء، فالإنسان أحياناً يَوقِفُ أما خصم، أو قاضي يدعو يا رب يا رب دون أن يحرك شَفَتاه، يدعو الله تعالى بِقَلْبِهِ، قال تعالى:

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) ﴾

[سورة مريم]

أي ما دَعَوْتُكَ يا رَبِّ في حياتي من دُعاءٍ إلا اسْتَجَبْتَ لي، قال الشاعر:

وَكُنْ عَن هُمُومِكَ مُعْرِضًا وَكُلِّ الهمومِ إِلَى القضا  
وَأُبَشِّرْ بِخَيْرٍ عاجِلٍ تنسى بِهِ ما قد مضى  
فَلَرَبِّ أَمْرٍ مُسْخِطٍ لَكَ في عواقِبِهِ رضا  
ولرَبِّما ضاق المضيق ولربِّما اتَّسع الفضا  
الله يفعل ما يشاء فلا تكن مُعْتَرِضًا  
الله عودَكَ الجميل فقس على ما قد مضى

فعلى المرء أن يُعوِّد نفسه دُعاء الله تعالى، في حالات الخصوم المخيفة والورطات الكبيرة، أو مرض مُخيف، أو خِصام زوجي، أو دُخُل قليل أو تجارة راکِدة، مشكلة في الصِّحة، ليس لنا إلا الله، ولا يُعَقَّل أن تَجِدَ إنسانًا يُعَلِّق رجاءه بالله تعالى ثمَّ يَحْتِيبُ الله في دعائه! قال عليه الصلاة والسلام:

(( عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَعْفِرُنِي فَأَعْفِرَ لَهُ ))

[رواه البخاري]

قال تعالى:

﴿ قُلْ مَا يَغِبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77) ﴾

[سورة الفرقان]

فأنتم إذا دَعَوْتُمُ اللَّهَ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّكُمْ تَعْرِفُونَهُ، وَأَنَّهَ الْخَالِقُ، وَالْمُسَيِّرُ، وَالرَّبُّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْمَعْطَى الْمَانِعُ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُ تَعَالَى مَوْجُودٌ، وَدَعَوْتُمْوهُ يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي، وَبِالْمُنَاسِبَةِ أَنْتَ لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَدْعُو إِلَّا إِنْسَانًا مَوْقِفًا بِوُجُودِهِ، وَيَسْمَعُكَ، وَيُجِيبُكَ، وَقَادِرٌ عَلَى تَلْيِيقَةِ دَعْوَتِكَ، فَإِذَا دَعَا الْإِنْسَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَمِنْ بَابِ أُولَى أَنَّهُ آمَنَ بِوُجُودِهِ، وَأَمَنَ بِسَمْعِهِ وَبِمَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَبِقُدْرَتِهِ، فَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى:

﴿ قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77) ﴾

[سورة الفرقان]

فنحن إذا دَعَوْنَا اللَّهَ فَقَدْ عَبَدْنَاهُ.

أرَدْتُ مِنْ هَذَا الدَّرْسِ قَوْلَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ... " قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60) ﴾

[سورة غافر]

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلِحِينَ فِي الدُّعَاءِ... " وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ عَبَدَهُ أَنْ يَسْأَلَهُ شَيْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ... " وَالدُّعَاءُ مَخَّ الْعِبَادَةِ، وَفِي حَالَاتٍ نَادِرَةٍ تَدْعُو اللَّهُ تَعَالَى فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكَ ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ أَنْ لَا يَسْتَجِيبَ لَكَ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي الدُّعَاءِ الْمَسْتَحِيلِ أَوْ الضَّرَرِّ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا تَدْعُوهُ تَعَالَى يَسْتَجِيبُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكَ كَتَبَ لَكَ أَجْرَ الدُّعَاءِ، وَادَّخَرَهُ لَكَ فِي الْآخِرَةِ.